خطاب القطيعة مع الدولة لدى الجماعات المتطرفة سماته ومظاهره

الأستاذ الدكتور/ محمد سالم أبو عاصي

عميد كلية الدراسات العليا الأسبق

مصر

لكل خطاب يتضمن وعيًا سماته التي ترسم معالمه وتشكل صورته، ومظاهره التي يبرز ويتجلى فيها.

وخطاب القطيعة مع الدولة لدى الجماعات المتطرفة ليس بدعًا من بين الخطابات عامة، فهو خطاب حين يتأمله الناقد الحصيف أسلوبًا ومحتوى؛ يكاد يضع أنامله على أبرز سماته ومظاهره، تلك التي يمكن أن تطالعنا فيما يلي:

السمة الأولى: أنَّه خطاب عنصري أُحادي:

فهو خطاب ينبعث من عنصرية تتنكر لكون جميع الفصائل والفرقاء إنَّما هم خلايا في الكيان الإنساني، مستحيل أن يستشعر هذا الكيان الصحة والحيوية إلا بتفاعل جميع فصائله وفرقائه في بوتقة عامة الإنسانية.

هو خطاب لا مكان عنده لمضامين سورة كاملة من سور القرآن الكريم، وهي سورة "الكافرون" التي يأمر الله فيها نبيه ﷺ بأن يبين لغير المسلمين أنَّ لكل فصيل معتقده، وقوانينه، وتشريعاته، وقيمه، وأنَّ لكلٍّ بكل صراحةٍ دينه، ولذلك تكرر في سورة "الكافرون"

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١)

ولا بد من المصارحة بأنَّ الدم لن يجف حتى تختفي هذه الرغبة الشريرة من قبل الجماعات الإرهابية المسلحة، ويترتب على هذا الفهم مطاردة العنصرية في الأرض، واختفاء الأحادية في الحوار الإنساني، وحتمية أن يسمع كل لكل، وأن يتطارح الجميع الحوار من أجل حياة أفضل في ظل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٢).

وفي هذا الصدد يتحتم أن نفهم أنَّ التعددية الدينية في الوطن الواحد طبيعة إنسانية، فلم يقل عاقل بأنَّ البشرية نسخ مستنسخة بعضها من بعض، بل الذي أقره وقرره الإسلام أنَّ التعددية واقع إنساني ملموس، يقول تعالى:﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(٣)، ومعروف أنَّ وثيقة التعددية التي أبرمها النبي ﷺ مع اليهود – في أول مقدمه ﷺ للمدينة المنورة – إنَّما هي وثيقة تقر التعددية، وتكرس أسس التعايش، وهي لليوم بين الدساتير والمعاهدات الدولية ما تزال تنال من الراسخية، والشموخ، والألق، والإعجاب الشديد، ما لا تحلم به المعاهدات والمواثيق العالمية على صعيد التعددية، والمواطنة، والتعايش، والحوار بين الثقافات والحضارات؛ ينبعث ذلك من أنَّ من القواعد التي يقررها الوعي الناضج أن الأخوة الدينية ليست هي الأخوة الوحيدة بين البشر، بل هناك أخوة الوطن، يقول تعالى﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٤)، ولهذه الآية نظائر عديدة في القرآن الكريم.

السمة الثانية: أنَّه خطاب استعلائي:

فهو خطاب ينظر لغيره على أنهم أقزام، وهو وحده من بين الفرقاء العملاق الأوحد الذي ينفرد بمعرفة مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من نصوص الوحي، يساعده على ذلك أنَّ الجمهرة التي تحوطه وتستمع إلى خطابه جمهرة أبرز سماتهم أنهم من الدهماء، يتخاطبون بسطحية وغوغائية، ويتلقون عن رموز هذه الجماعات تلقيًا

لا يعملون فيه عقلهم، ويرون أنَّ صاحب الخطاب مصون من الزيغ والانحراف، بينما يقول الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[٥].

ومن صفات هؤلاء أنَّهم دائمًا يتذرعون بالأحوطية؛ فيضيقون على عباد الله بما لم يأذن به الله، ناسين أو متناسين أنَّ مبنى الأحكام في الإسلام على الأيسر وليس على الأحوط.

ومن شر ما ابتلي أصحاب هذا الخطاب به: الانتفاخ العلمي الأجوف؛ إذ يتطاولون على المؤسسات العلمية ذات الأصالة والعراقة التي عاش الفكر وما يزال يعيش في أحضانها، فترى الواحد منهم يتطاول على الأزهر رغم أنَّه قزم تتعسر خطاه في أبسط المسائل العلمية، والعجيب لو اطلع أحد على ما يدعونه من مؤلفات لهم ما وجد غير غثاء كغثاء السيل، وإطناب يتلوه إطناب في مسائل هامشية، الجهل بها لا يضر، والتبحر فيها لا ينفع.

ومما يترتب على ذلك:

١- حصرهم مفهوم الجهاد في القتال فقط:

حيث زعموا أنَّ الجهاد إنَّما شُرع بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وسبب هذا الظنِّ الخاطئ أنَّهم حصروا الجهاد في معناه القتالي، ولا شك أنَّ مقاتلة المعتدين شُرعت بعد الاستقرار في المدينة، لكنَّ الذي يغيب عن أذهان الكثيرين أنَّ القرآن المكي تحدَّث عن الجهاد كما تحدث عنه القرآن المدني، ففي سورة النحل المكية نقرأ قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

وفي سورة الفرقان المكية أيضًا ، نجد قول ربِّنا آمرًا نبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[٧]، ولا يخفى أنَّ الضمير في قوله (بِهِ) يعود إلى القرآن، وأنَّ الأمر صريح للنبي ﷺ بالجهاد، لكن أيُّ جهاد قُصد في هذه الآية المكية؟

لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تقصد هذه الآية القتال؛ لما علمت أنَّ القتال لم يُشرع إلا في المدينة، إذًا المراد بالجهاد هنا: الجهاد الدعوي للكفار حال كونه ﷺ في مكة قبل أن يشرع القتال، وممَّا يؤكد هذه الحقيقة- في أنَّ الجهاد يرد بمعنى جهاد الدعوة – قول النبي ﷺ : "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[٨] .

غير أنَّ الجماعات المتطرفة تظل مصرَّةً على رأيها المضلل الذي حصر الجهاد في معناه القتالي فقط، متغافلاً ومتجاهلاً سائر المعاني المتعددة والمتعلقة بجهاد النفس، وهي ما تحتاج إلى المجاهدة الحقيقية، لا هذا المعنى الذي يُوظِّفونه لخدمة أغراضهم الخاصة.

٢- وصفهم المجتمعات الحالية بالجاهلية:

حين نتأمل آيات القرآن نجد أنَّ الله تعالى ذكر لفظ الجاهلية أربع مرات في القرآن الكريم:

الأولى: في سورة آل عمران مقرونة بكلمة الظنِّ، أو وصفًا لهذا الظنِّ، يقول تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[٩].

الثانية: في سورة المائدة مقرونة بكلمة الحكم، أو وصفًا لهذا الحكم، يقول تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١٠].

الثالثة: في سورة الأحزاب مقرونة بالتبرج، أو وصفًا له، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[١١]، وزادت هذه الآية الكريمة قيدًا آخر هو وصف الجاهلية بأنَّها الأولى.

الرابعة: في سورة الفتح مقترنة بلفظ الحمية، أو وصفًا لهذه الحمية، يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[١٢].

كما تعرَّض البخاري – رحمه الله – في صحيحه للفظ الجاهلية، فقال: "المعاصي من أمر الجاهلية".

وهنا أمران:

الأمر الأول: هل يصح إطلاق لفظ الجاهلية دون تقييد؟

الأمر الثاني: هل يصح وصف المجتمعات الحالية بهذه الكلمة ؟

وفي الجواب عن الأول نقول: لا يصح بحال من الأحوال؛ لأنَّ الكلمة إذا أُطلقت دون تقييد فإنَّها تتضمن معنى الكفر، وفي هذه الحال تشمل: العقيدة والأخلاق والعبادات والمجتمع كله؛ إذ اللفظ العام ينصرف إلى كل أفراده ، واللفظ المطلق يشمل كل أجزائه ما لم تأت قرينة أخرى، ومن هنا يصير المجتمع كله عند وصفه بالجاهلية جاهلي العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات والأحكام والسلوك، وهذا خطأ فادح؛ إذ إنَّ جاهلية العقيدة لا تعني غير الكفر ، والباقي قد يكون خليطًا بين الكفر والمعاصي.

وفي الجواب عن الثاني نقول: الجاهلية فترة من الفترات الزمنية، وقد عبَّر القرآن عن هذه الفترة – أعني فترة ما قبل الإسلام– بالجاهلية، وعبَّر عنها مرة أخرى بالجاهلية الأولى؛ إشارة إلى جاهلية سبقت الإسلام مباشرة.

ويرى بعض المتطرفين أنَّها ملة أو وصف، ومن هنا يمكن أن تتجدد، ومن ثَمَّ تُوصف بها المجتمعات الإسلامية الحالية، لكنَّ الصواب أنَّا إذا أردنا استعمال هذا الوصف، فلا بدَّ أن يكون بصفة جزئية لا بصفة مطلقة، كما قال رسول الله ﷺ لأبي ذر ﷺ : " إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ"(١٣) ، وكما قالﷺ : " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: " دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"(١٤) ، والبيِّن من هذين الحديثين وغيرهما أنَّه يقصد بها السلوك والعادات، ولا يقصد الحكم على هؤلاء ولا غيرهم بالكفر كما تذهب هذه الجماعات المتطرفة.

ولا يجوز مطلقًا أن يربط بين الحكم على سلوك فردٍ ما بالحكم على المجتمع كله بلفظ الجاهلية، وأول قاعدةٍ من قواعد الحكم على المجتمع بأنَّه

مجتمع إسلامي: قبوله الإسلام دينًا بالنص الرسمي أو بالقول اللساني، وأبرز ظاهرة تدل على إسلامه وتمنع رميه بالكفر أو بلفظ الجاهلية أو بقتاله هي إعلان الأذان للصلاة، وشيوع شعائر الإسلام في المجتمع المصري على وجه الخصوص، والعالم العربي والإسلامي على وجه العموم.

وأعود فأُكرر بأنَّ تقصير الإنسان لا ينسحب على المجتمع كله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[١٦]، فلا نُكفِّر المجتمع بكفر قلةٍ، ولا نصفه بالانحلال العام لانحلال قلة فيه، أو نرميه بالجاهلية لفعل شخصٍ ما فعلاً من أفعال الجاهلية، وإذا نظرنا في التاريخ منذ عصر الرسالة إلى الآن لن نجد مجتمعًا خاليًا من تقصير بعض أفراده تجاه الشرع الشريف.

وإصلاح المجتمع لن تكون وسيلته رمي العاصين بالجاهلية أو قتالهم؛ فإنَّ ذلك يؤدي إلى مفسدة أعظم وأكبر من الخير الذي ينشد، والله يقول لنبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١٧].

السمة الثالثة: أنَّه خطاب لا يتحلى بالمنهجية العلمية:

فهو خطاب لا يتحلى بالمنهجية العلمية التي أرسى قواعدها فرسان ربانيون اصطفاهم الأزهر الشريف، فإذا ذكرت أمامهم واحدًا من أساطين الأزهر الذي طبقت شهرته الآفاق لاستخف به وامتعض، وهو منه كالثرى من الثريا.

يضاف إلى ذلك أنهم يعانون من سطحية مقيتة في علوم العربية، من ذلك مثلاً: أنَّهم يطلقون النصوص الثلاثة التي وردت في سورة المائدة عن الذين لم يحكموا بما أنزل الله بأنَّهم كافرون ظالمون فاسقون، بينما لو عرف هؤلاء أنَّ من أدوات المفسر الفاعلة علمه بدلالات السياق داخليًّا وخارجيًّا، سابقًا ولاحقًا؛ لعرفوا أنَّ تلك النصوص المراد بها "كفر دون كفر".

ولا بد أن نشير هنا إلى أنَّ هذه الجماعات اتكأت جاهلة ومضَلَّة ومُضِلَّة على

سيد قطب في قوله: من حكم بغير القرآن ولو في حكم واحد فقط فقد ردَّ أُلوهية الله، وادعى الألوهية لنفسه، محتجًّا- بناء على فهم مغلوط- بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[١٨].

وهذا الفهم السقيم مخالفٌ لتفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ فقد ثبت عنه أنَّه قال: إنَّه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنَّه ليس كفرًا ينقل عن الملة ((كفر دون كفر))[١٩]، ثم إنَّه ورد في صحيح مسلم عن البراء بن عازب أنَّه قال:" إن هذه الآية والآيتان اللتان بعدها في إحداهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢٠]، وفي الأخرى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢١] نزلت كلها في الكفار، أي الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وليس المسلمون هم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، إنَّما هي في اليهود ومن كان مثلهم.

ولم يصح بالإسناد الصحيح عن الصحابة الكرام في تفسير هذه الآية إلا : تفسير ابن عباس، وتفسير البراء، وعلى ذلك درج فقهاء الشريعة إلى قريبٍ من منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

فإن قيل: الآية عامة دون نظر إلى من نزلت فيهم.

قلنا: يعارض هذا العموم في الظاهر عموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [٢٢] وطريقة الجمع بين العامين بالتخصيص، وإلا تعارضت النصوص، وعليه فقوله تعالى:﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: جاحدًا، وبناءً عليه فإنَّ حملهم الآية على العموم الذي يشمل كل من حكم بغير ما أنزل الله جاحدًا أو غير جاحد، وضعٌ للآية في غير موضعها.

ومما ينجم عن خطابهم الذي لا يتحلى بالمنهجية العلمية: انزلاقهم في أحكام خاطئة وهم لا يشعرون؛ لجهلهم المطبق بمقاصد الشريعة، بينما يمثل العلم بهذه المقاصد علامات على الطريق تأخذ بيد المتعامل مع النصوص، وتنير له المسالك.

ومقاصد الشريعة تعلي علم الفقيه من أمور ثلاثة:

١ – التعليل؛ باعتباره أداةً لضبط الحكم وربطه بالمعنى.

٢ – المصالح؛ باعتبارها غايةً للحكم.

٣ – مآلات الأفعال؛ باعتبارها القاعدة الرئيس في فقه التنزيل.

السمة الرابعة: خطاب يتدرّع بقوى لغتها القنابل والرصاص:

وإن تعجب فعجب استتارهم إلى أجنحة عسكرية يلوذون بها إذا أفلسوا في ميادين الحوار العلمي، فأنت إمَّا أن تردد في جهالة أو عماية ما يقولون، وإمَّا أن تنتظر عدوانًا على عرضك، أو على أموالك، أو على ذاتك من جماعتهم الإرهابية المسلحة، ونسي هؤلاء أنَّ القرآن الكريم أمر موسى وهارون أن يقولا لفرعون وهو الطاغية المتأله قولاً لينًا، يقول تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٢٣].

والنتيجة التي نريد أن نخلص إليها: أنَّ خطابًا هذه سماته وتلك خصائصه – أُحادى، متعجرف، متعالم، مصاص للدماء– لابد أن يكون في قطيعة مع دولة مؤمنة بالحوار وتعدد الثقافات وقيام المؤسسات.

الهوامش :

(١) الكافرون: ١-٦.
(٢) المائدة: ٤٨.
(٣) يونس: ٩٩.
(٤) الشعراء: ١٠٥- ١٠٦.
(٥)النحل: ١١٦.
(٦) النحل: ١١٠.
(٧) الفرقان: ٥٢.
(٨) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي.
(٩) آل عمران: ١٥٤.
(١٠) المائدة: ٥٠.
(١١) الأحزاب: ٣٣.
(١٢) الفتح: ٢٦.
(١٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ومسلم في كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل.
(١٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلومًا .
(١٥) الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨، والزمر:٧.
(١٦) الطور: ٢١.
(١٧) النحل: ١٢٥.
(١٨) المائدة: ٤٤.
(١٩) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، ٣٤٢/٢، حديث رقم ٣٢١٩.
(٢٠) المائدة: ٤٥.
(٢١) المائدة: ٤٧.
(٢٢) النساء: ٩٤.
(٢٣) طه: ٤٤.